

” من الأفكار الساذجة لدى البعض، شياع أن لا وظيفة لنا في أي موقف من مواقف الإدراك الحسيّ سوى تقبّل الموضوع المدرك وانعكاسه فينا ولا دور لنا في تنظيمه إدراكياً...، ولكن سذاجة هذه الفكرة لا تصمد أمام التوقعات التي يتوقّعها كلّ منّا في مواقفه الإدراكية، كأن ننتظر رؤية حصان إذا سمعنا وقع خطاه، فهذا التوقّع شأنٌ عقلي وليس شأنًا حسيًا، والعين لا تتحسس الحصان طالما لم يصبح في مجال الرؤية؛ وكذلك إذا أعاق الضباب أو الظلام البصر، وبدا شكل باهت يشبه الحصان في هيكله وحركته، أفلا نحكم أحياناً أنّ ما وراء الضباب والظلام حصان؛ مع أنّ صورة الحصان لم تنعكس بوضوح في صقع العين... ولنتأمل بدقّة في أفق بعيد: العين لا تُحسّ ببعده لأنّ البُعد معطى عقليّ وليس بحسيّ، فأنا أحكم بعقلي أنّه بعيد بناءً على لونه وعلى نسبة حجم الأشياء التي أراها فيه... وما يؤكد أنّ هذا الحكم عقلي وليس حسيًا، هو أنّ الرسّام يعرف كيف يجعلني أدرك بُعد جبل أو قرب شجرة في لوحته من خلال المؤثرات اللونية والشكلية “

Alain, Elements de philosophie

- أ. إشرح هذا النص مبيناً الإشكالية التي يطرحها.
 ب. ناقش موقف النص في ضوء نظرية أخرى.
 ج. هل تعتقد أن الفن قادر على تغيير إدراكنا الحسي للواقع؟
- (تسع علامات)
 (سبع علامات)
 (أربع علامات)

المعالجة

المقدمة والإشكالية:

أ
 الإنسان كائن الأبعاد الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل: فهو ينفرد بوعي الزمن وتقسيمه إذ يتصور الماضي من خلال الذاكرة، والحاضر من خلال الإدراك، والمستقبل من خلال الخيال، ولا ينفكّ الإنسان منذ أسابيعه الجنينية الأولى عن الاتصال بواقعه والتفاعل معه، وأوّل هذه التفاعلات هو الإدراك الحسي فهو آليّة تواصل الإنسان مع محيطه المادي المحسوس، ويحتلّ الإدراك الحسي بمسائله وقضاياها موقعاً محورياً بين المسائل الفلسفية والإبيستمولوجية، ولا سيما مسألة طبيعة الإدراك الحسيّ، وتنطلق هذه المسألة من إشكالية ترتبط بالعلاقة بين الإدراك والذات المدركة من جهة وبينه وبين الموضوع المدرك من جهة ثانية؛ وهذا النص ينتمي إلى المدرسة العقلانية التي تربط الإدراك الحسي بالقوى العقلية للذات المدركة: فما هي طبيعة الإدراك الحسيّ؟ هل هو عملية عقلية تتحكّم بها الذات المدركة؟ أم هو عملية يتحكّم بها شكل Gestalt الموضوع المدرك؟

شرح نظرية النص:

التمهيد :

يتبنى النص موقفاً تأسيسياً من مواقف المدرسة العقلانية حول الإدراك الحسيّ، والمدرسة العقلانية من أمّهات المدارس في تاريخ الفلسفة والإبيستمولوجيا، من أهمّ فلاسفتها: آلان ماتن هذا النص، وأرسطوطاليس وابن سينا ولا لاند وديكارت وسبينوزا وكانط ولاينو.

الشرح:

المتن في فقرته الأولى حين ينص على أنه: ”من الأفكار الساذجة لدى البعض، شياع أن لا وظيفة لنا في أي موقف من مواقف الإدراك الحسي سوى تقبل الموضوع المدرك وانعكاسه فينا وأن لا دور لنا في تنظيمه إدراكياً“ يعمل على تخطيط تصورات شائعة عن الإدراك الحسي لدى الغشطالتيين *Gestaltisme* حيث يعتبرونه تصوراً مرآتياً للموضوع المدرك دون دور إيجابي للعقل في بناء الموقف الإدراكي؛ وسياق النص يعمل أيضاً على تخطيط الحسيين *Empirisme* حيث يعتبرونه حكماً حسياً مرتبطاً بالحواس الخمسة؛ فالمدرسة العقلانية تركز على أهمية العقل في كل عمليات التصور والوعي: ومنها الإدراك الحسي: لأن الإدراك الحسي قبل أن يكون حسيّاً مرتبطاً بالحواس الخمسة هو إدراك مرتبط بالعقل، وما الحواس إلا قوة من قواه وبريد ينقل له الانطباعات الحسية؛ ولعل تركيز العقلانية على أهمية العقل هو تصويب لمسار المدرسة الحسية الحسية التي بالغت في تقدير الحواس.

والنص في فقرته التالية يستدل على عقلانية الإدراك الحسي فيقول: ”ولكن ساذجة هذه الفكرة لا تصمد أمام التوقعات التي يتوقعها كل منا في مواقفه الإدراكية، كأن نتظر رؤية حصان إذا سمعنا وقع خطاه، فهذا التوقع شأن عقلي وليس شأن حسيّاً، والعين لا تتحسس الحصان طالما لم يصبح في مجال الرؤية؛ وكذلك إذا أعاق الضباب أو الظلام البصر، وبدا شكل باهت يشبه الحصان في هيكله وحركته، أفلا نحكم أحياناً أن ما وراء الضباب والظلام حصان؛ مع أن صورة الحصان لم تنعكس بوضوح في صقع العين“؛ ففي الموقفين المذكورين يعتمد الإدراك الحسي على العقل، ولم يقدّم الحس سوى بتنشيط القوى العقلية كالذاكرة والاستدلال على الشيء بلوازمه؛ فلو كان الحكم الإدراكي تحسّم الحواس لما تحقق في الموقفين المذكورين في النص لأن المعطيات الحسية غير كافية لتشكيله.

وقد رأى لالاند وديكارت أن الإدراك الحسي عملية تقوم بها الذات حيث تفسّر الأحاسيس الواردة بما عندها من صور وذكريات وأحكام، ويمثّل آلان على ذلك بالمكعب حيث نرى بعضاً من وجوهه وأضلاعه لا كلها، ومع ذلك نحكم بتكعيبه، ما يعني أن الإدراك يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الحس، فلو كان يعتمد على الحس لكان ينبغي أن نتحسس كل وجوهه وأضلاعه؛ ويضرب ديكارت مثلاً على ذلك الشمعة التي نحكم على بقاياها الذائبة والمحترقة أنها شمعة مع أن هذه البقايا الشمعية تغيرت صفاتها الحسية المعتادة من اللون والشكل والرائحة، إذاً فالقوى العقلية -وخاصة الذاكرة والخيال- هي التي تتيح تفسير المعطيات الحسية؛

ويؤيد كانبث أهمية العقل في الإدراك الحسي نظراً إلى أنه ينفرد بإدراك بُعدي الزمان والعمق والمسافة في الموضوع المدرك بينما الحواس لا تنقل لنا إلا بُعدي الطول والعرض؛ وهذا ما يؤكد النص في فقرته الأخيرة: ”ولنتأمل بدقة في أفق بعيد: العين لا تحسّ بعده لأن البعد معطى عقلي وليس بحسي، فأنا أحكم بعقلي أنه بعيد بناءً على لونه وعلى نسبة حجم الأشياء التي أراها فيه... وما يؤكد أن هذا الحكم عقلي وليس حسيّاً، هو أن الرسّام يعرف كيف يجعلني أدرك بُعد جبل أو قرب شجرة في لوحته من خلال المؤثرات اللونية والشكلية“.

هذا والإدراك الحسي عملية تركيبية تنطلق من إدراك الأجزاء والعناصر توصلاً إلى إدراك الكل فكما أن الكل مُركّب من أجزاء، ولا يتكوّن الكل إلا بعد توفر الأجزاء واجتماعها، كذلك إدراك الكل مركّب من إدراك الأجزاء، ولا يكون إدراك الكل إلا بعد تراكب

وتراكم إدراك الأجزاء؛ ولذلك كان للعقلانية تأثير كبير على قضايا التعلّم، فاعتمدت بعض المدارس التربوية ولا سيما الكلاسيكية طريقتهم في الانتقال الإدراكي من الأجزاء إلى الكل في تعلم القراءة واكتساب المهارات الحسية- الحركية.

ولما كان العقل هو الركن في عملية الإدراك لا الحس، فالأخطاء الإدراكية عقلية وليست حسية: فوظيفة الحواس حسب لانيو ليست الحكم حتّى ننسب الخطأ والخداع إليها، بل الخطأ ناشئ من غفلتنا عن بعض القوانين الطبيعية والهندسية أو اعتمادنا على مبدأ ثبات الأشياء، فليس البصر مخطئاً إذا بدا له البحر أزرقاً والسراب ماءً والثلج أبيضاً والقلم الموضوع في الكوب مكسوراً مع أنّ هذه الصفات وهمية وليست واقعية، المخطئ هو العقل الغافل عن حقيقة هذه الظواهر الفيزيائية؛ أمّا الحسّ فيمكن أن يُنسب إليه القصور فقط كقصوره عن تمييز الألوان القائمة في الظلام.

هذا ويرى العقلانيون أنّ وحدة واندكاك الإحساس بالإدراك وهُم سببه سرعة الانتقال بينهما في المواقف الإدراكية المعتادة فثمة انفكاك وتغيّار بينهما بدليل وجود الأحاسيس المحضة كإنفعال الحواس لدى الشارد والنائم ولكن دون إدراك ووعي منه.

النقد الداخلي:

ب

رغم تقدّم العقلانيين في إنصاف مكانة العقل في الموقف الإدراكي، إلا أننا نلاحظ فيها ما يلي:

1. تعاطت مع إدراك العقل كأنّه ثابت لا يختلف بين شخص وآخر، وأنّه لا يختلف لدى الشخص الواحد من حالة لأخرى، ولكنّ الصّحيح - كما قال جان بياجيه - أنّ العقل ديناميّ: فهو في تغيّر مستمر، بحسب العمر الزمني والعمر العقلي والظروف الاجتماعية والثقافية والعاطفية، فالموضوع نفسه يختلف إدراكه لدى الشّخص الواحد باختلاف نمّاته ...؛ هذا ولا تفسّر النظرية العقلانية الإدراكات الأولى لدى الطفل لأنها حسية أكثر من كونها عقلية.
2. رغم تلميح العقلانيين إلى دور الموضوع المدرك في عمليّة الإدراك الحسيّ إلّا أنهم وقعوا في الدوغمائية والاختزالية حين بالغوا في دور العقل كأنّ الإدراك الحسيّ أحادي منفصل عن الموقف الإدراكي و مونولوج Monologue داخل الذات المدركة، وهذا غير صحيح فانتظام الموضوع المدرك وقوته ومغايرته... تؤدي دوراً كبيراً في الإدراك الحسيّ.
3. تحتاج هذه النظرية إلى استكمال، فهي بعد فصلها بين الإحساس والإدراك لم تفسّر كيفية تحول الإحساس وهو أثر عصبي فيزيولوجي إلى إدراك وهو أمر عقلي مجرّد.

النقد الخارجي:

النظرية الغشطالية:

في مقابل تأكيد المدرسة العقلانية على أهمية الذات المدركة بقواها العقلية في عملية الإدراك الحسيّ، تصدّت مدرسة أخرى أكدت على أهمية الموضوع المدرك، وهي المدرسة الغشطالية التي تأسست في مطلع القرن العشرين بألمانيا ومن أبرز أعلامها فرتهايمر وكافكا وكوهلر وغيوم.

إعنتت الغشطالتيه بالقضايا الإدراكية في علم النفس، وإشتقت إسمها من مصطلح غشطالت وهو كلمة ألمانية تعني الشكل أي الهيئة والصيغة التي تجمع العناصر والأجزاء سواء كان شكلاً بصرياً أو سمعياً... ورأت أنّ الإنسان لا يُدرك الأجزاء فحسب، بل يدرك شيئاً آخر هو الشكل: فشكل المثلث مثلاً مؤلف من تشكّل ثلاثة أضلاع بكيفية خاصة، والشكل الصوتي لكلمة شمس مؤلف من تشكّل أصوات الشين والميم والسين بترتيب خاص... إلخ، وإذا زاد أو نقص عنصر ما أو تغيّر ترتيب العناصر يحدث شكل آخر مع أنّ العناصر هي ذاتها في كلّ مرة.

ترى الغشطالتيه أنّ مداركنا لا تتفتح على عالم من الموضوعات المبعثرة بل على عالم تكون فيه الموضوعات منتظمة حسب قوانين فيزيائية - هندسية، وحينئذ ليس الإدراك الحسي عملية تركيبية للعناصر والأجزاء المدركة، بل هو عملية تصوّرية تعكس الموضوعات الخارجية المدركة كما تعكس المرآة الموضوع المقابل لها كلاً واحداً ودفعاً واحدة، والأساس في عمليّة الإدراك هو الكلّ وليس العناصر، فالكل هو الذي يُدرك أولاً ثم تُدرك التفاصيل والعناصر ثانياً، ولذلك نستطيع أن نصف الإدراك الغشطالتي بأنه تفكيكي لأنه ينطلق من الكل إلى الأجزاء؛ ولذلك طبقت أفكارهم في غير صعيد وبالخصوص في علم النفس التربوي وقضايا التعلّم، فاعتمدت بعض المدارس التربوية ولا سيما الحديثة والمعاصرة طريقتهم في الانتقال الإدراكي من الكل إلى الأجزاء في تعلم القراءة واكتساب المهارات الحسية - الحركية.

لا يفصل الغشطالت بين الإحساس والإدراك، فالإدراك الحسيّ عملية واحدة مندكّة وليست منفكّة، متصلة وليست منفصلة، هذا ويرى الغشطالتيون أنّ الأوهام الإدراكية سببها عدم توقّرها على القوانين الإدراكية التي أهمها: قانون التجاور: فالتجاور والتقارب بين العناصر يسهّل إدراكها وإدراك الشكل الذي يجمعها؛ وقانون التشابه والتناظر: فالشكل المتجانسة أجزاؤه إدراكه أسهل من الشكل ذي الأجزاء المعقّدة وغير المتجانسة: كالرقم 11 22 33 بالنسبة إلى الرقم 69 47 25؛ وقانون الشكل الفارض ذاته: فالشكل الكبير بين أشكال صغيرة أو الصغير بين كبيرة أو القائم بين فاتحة أو الفاتح بين قائمة يفرض علينا إدراكه؛ وقانون الشكل الأفضل: وفالشكل الهندسي البسيط كالخط المستقيم بالنسبة إلى إدراكه أسهل من الخط المنحرف غير الهندسيّ؛ وقانون الشكل والخلفيّة

Background: وهو قانون يعني تركّز الإدراك على شكلٍ ما لكون شكل آخر مجرد خلفية له، وقد تنعكس العلاقة بين الشكلين في موقف إدراكي آخر، فإذا تركّز البصر على الإصبع المائل أمام العين يكون المشهد وراءه خلفية باهتة له، وإذا تركّز البصر على المشهد يكون الإصبع خلفية باهتة في هذا الموقف الجديد؛ وقانون الإغلاق: فنحن ندرك الأشكال غير المكتملة على أنّها مكتملة.

التوليف والتلخيص:

أمام هذه الإشكالية واتجاهات حلها لابدّ من الخروج بموقف توليفي فقد وُفّقت العقلانية حين بيّنت دور الذات المدركة ولا سيما قواها العقلية في عملية الإدراك ولكنها أخفقت في إقصاء الموضوع المدرك، ووفقت الغشطالتيه في بيان دور الموضوع المدرك، ولكنها أخطأت في تهميش الذات المدركة؛ فالصحيح أنّ الإدراك علاقة تفاعلية بين الشخصية بمكوناتها وبين الموضوع، وهو نام متغير بنمو وتغير الذات والشخصية وتحسين الموضوع المدرك يؤدي إلى تمتين الإدراك.

